الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

# العدول في البلاغة العربية، مسائله ومناهله

# *Ecart in Arabic Rhetoric, His Cases and Sources*

د. عبد القادر حمراني
قسم اللغة العربية- جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف ( الجزائر)
a.hamrani@univ-chlef.dz

**ملخص**

للكلام البليغ دروب يسلكها وضروب يجري عليها، تختلف باختلاف الأحوال والمقامات. وما يناط بذلك من مقاصد وغايات. فمن الكلام ما يكون موافقا لمقتضى ظاهر الحال. وذلك هو الأصل الذي يراعى عند نظم الكلام. ومنه ما يكون خارجا على خلاف مقتضى الظاهر تماشيا مع متطلبات المعنى وظروف المقام.ولا يكون العدول عن ذلك الأصل إلاّ لنكت بلاغية ولطائف معنوية لا سبيل إلى تحقيقها إلا عبر ذلك الأسلوب الذي يتجلى في أنماط شتى من فنون القول وأفنانه ممّا هو آخذ بالألباب. وآسر للنفوس ضمن دروب لا تحصى وضروب لا تستقصى من صوّر النّظم التي تعكس عبقرية هذه اللغة وحيويتها. فلكلّ لون من ألوان المعنى نوع من الأسلوب، ومسلك خاص في التعبير.وهو ما نروم التنبيه إليه والوقوف على بلاغته من خلال هذه الورقة البحثية.

**الكلمات الدالة:** : الكلام البليغ، المقام، العدول، عبقرية اللغة، أنواع المعنى.

**Abstract**

The eloquent speech has different ways of expression. They differ according to the context and related purposes Some words are consistent with the apparent situation, and this is the origin that takes into account when speech systems. And from that what comes on the contrary is apparent depending on the requirements of the meaning and conditions of conext. The ecart shall not be except for rhetorical reasons, and polites meanings that only be achived through the style that oppear in many paterns of arts and types of say which reflect geniourisity of arabic language , because each meaning is kind of style and special way of expression. and thats what we want treat it through this paper.

**Key words:** *The Eloquent Speech, Context, Ecart, Genius Language, Types of Meaning.*

## مقدمة

تعتري الأساليب التعبيرية في بناها التركيبية عوارض شتّى تعدل بها عن أصلها المفترض لأغراض يتطلبها المقام، وتوجّهها مقاصد الكلام. ولا ترد هذه العوارض إلاّ لتقرير فكرة وإضافة معنى لاسبيل إليه من دونها. وما ذاك إلاّ لأنّ معنى الكلام مرتبط بترتيب أجزائه، وطبيعة أوضاعه بالنظر إلى ظروف المقام، وما يناط به من ملابسات الحياة. وتلك هي عين البلاغة التي عبّروا عنها بقولهم:" البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته."[1] والذي يجب التنبيه إليه في فهم المراد من المطابقة هو أنواع التصرّف التي يتمظهر فيها الكلام البليغ بحيث يكون مطابقا لمقتضى ظاهر الحال. وقد يستوجب الأمر العدول عن ذلك الظّاهر تبعا لمتطلبات المعنى المراد. وما يهدي إليه الذوق الأدبي الرفيع من استخدام لأساليب التعبير الحاملة لأصناف البيان. ومن يتدبّر طبيعة هذه اللغة يقف على حقيقة مفادها أنّ سرّ عطائها الذي لا ينضب، وقوّة الاستجابة فيها لكل مطلب وليدا جمعها بين أصناف العدول الذي تتمظهر فيه أصناف التعبير العاكسة لبصمات التفكير. ومن رام إدراك هذا العطاء المكتنز ألفاه في الكلام البليغ العالي الطبقة ممّا هو مثير للنّفوس ومستجيب لكل مجرّد ومحسوس. وفي القرآن الكريم من هذه الظواهر الأسلوبية ما يغري بالباحث ويدفعه إلى الوقوف على حقائقها والتنبيه إلى لطائفها ودقائقها. وهو ما نسعى إلى استجلائه عبر هذه الورقات من خلال عينات متنوّعة نستوحي لطائفها، ونترصّد أسرارها. كلّ هذا ونحن نعلم علم اليقين أنّه على قدر تفنّن الواصفين في وصفه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف. ولكن أخذ القليل خير من ترك الكثير.

من ظواهر العدول عن الأصل في إلقاء الخبر إجراء الكلام على خلاف مقتضى الظاهر من حال المخاطب تبعا لأمور اعتبارية تنزيلية يجعلها المتكلّم مقامات يصوغ كلامه على مقتضاها " فيجعل غير السائل كالسائل إذا قدّم إليه ما يلوّح إليه بالخبر فيشرف له استشراف المتردّد الطالب." [2] ولهذا الضرب من الأسلوب مواطن دقيقة لا يهتدي إلى مواقعها إلاّ ذكيّ النفس ، مرهف الحسّ على نحو ما تشير إليه قصّة أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر مع بشّار في بيته الشهير :

**بَكّرَا صَاحبي قبل الهجير *** إنّ ذاك النجاح في التبكير**

حيث قال له خلف الأحمر: « لو قلت – يا أبا معاذ- مكان إنّ ذاك النجاح ...فالنجاح في التبكير كان أحسن. فقال بشار: إنّما بنيتها أعرابية وحشية، فقلت: إنّ ذاك النجاح. ولو قلت فالنجاح كان هذا من كلام المولدين. ولا يشبه ذلك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة.» [3] ومدلول هذا الكلام أنّ بشارا لمّا أمر المتلقي بالتبكير في صدر البيت أدرك بفطرته الأصيلة أنّه يتطلّع إلى معرفة علّة ذلك الأمر ألقاه في صورة مؤكّدة وذلك أدعى لقبوله والامتثال له. ولو جاء الكلام مرسلا من غير توكيد لم يكن المتكلّم واعيا بأسرار نفس المخاطب. ويشيع هذا الضرب من الأسلوب في الذّكر الحكيم نحو قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ التوبة:40. لمّا نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صاحبه عن الحزن استشرفت نفس الصديق رضي الله عنه إلى معرفة السبب لأنّ الحزن له سلطان على النفوس في مثل هذا المقام لقوّة دواعيه فكان النهي عنه أمرا غريبا يتطلّب إظهار علّته فأكّد له ذلك بقوله:{ إنّ الله معنا} ليثبّت الرضا واليقين في قلبه، وينفي عنه الجزع والفزع. وقد ينزّل المنكر منزلة غير المنكر لعدم الاعتداد بإنكاره لانعدام الدليل على إنكاره ولو أنصف لعدل عن الإنكار. ولهذا الضرب من الأسلوب« أثره الغالب في النفس حين تجد الكلام الذي يواجه الرفض والجحود خاليا من الاحتفال والتوكيد، خافت النبرة، هامسا بالحقيقة في غير جلجلة وضجيج، وتجد هذا في كتاب الله كثيرا جدّا.»[4] مثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى مخبرا الناس كافة المؤمنين منهم والكافرين:﴿ يسبّح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدّوس العزيز الحكيم ﴾-الجمعة:-01 معلوم أنّ تسبيح جميع الكائنات السماوية والأرضية لله عزّ وجلّ أمر منكر عند الكفار ولكن رغم جحودهم وإنكارهم لما يتلى عليهم فإنّه لم يُقِم لهم وزنا. وساق الخبر خاليا من المؤكّدات للإشارة إلى أنّ ذلك التسبيح هو حقيقة مسلّم بها فهي ليست بحاجة إلى توكيد. يضاف إلى هذا أنّه غير مكترث بحال الجاحدين. وهذا اللون من التعبير شائع في القرآن الكريم، وبخاصة ما يتعلق بالمغيّبات. وقد يرد الخبر على هذا النحو المرسل من التوكيد ويكون الغرض منه الادّعاء، ويكثر ذلك في المدح نحو قول ربيع بن مقروم الضبي في مطلع قصيدته:

**شَمَّاءُ وَاضِحَةُ المَعَارِضِ طَفْلَةٌ *** كَالبَدْرِ مِنْ خَلَلِ السَّحَابِ المُنْجَلِي** [4]

الظّاهر أنّ سوق مثل هذا الكلام، وتقرير هذه الصفات أمر بحاجة إلى توكيد لكن الشاعر سلك غير هذا السبيل لادّعائه أنّ هذه الممدوحة مشهورة بين الناس بهذه الأوصاف ومتفرّدة بها، لا ينازع في ذلك منازع. كما أنّ حذف المبتدأ فيه ادّعاء بأنّ ذكر هذه الأوصاف عند الإطلاق ومن غير تقييد يجعل الأفهام لا تنصرف إلاّ إليها.

أمّا الأسلوب الإنشائي فقد يخرج هو الآخر على خلاف مقتضى الظاهر حيث تتوارد عليه معان جمّة، ويرشح بدلالات كثيرة حينما يعدل به إلى وجهة دلالية أخرى تحدّدها ظروف المقام، وأحوال إلقاء الخطاب.فإذا كان الاستفهام في حقيقته دالا على طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل، فإنّه قد يعدل عن هذا الأصل لتحقيق دلالة أخرى تستفاد من السياق وقرائن الأحوال. وقد توسّعت العرب في استعمال هذا الأسلوب وأشربته معاني ودلالات ثانوية. فقد ينسلخ حرف الاستفهام عن دلالته الأصلية ويكتسي دلالة ثانية يفصح عنها السياق، نحو إفادة معنى الإثبات لـ "هل" في قوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدّهر لم يكن شيئا مذكورا ﴾ سورة الإنسان:01 "هل" هنا بمعنى " قد " لأنّ الاستفهام تقريريّ والتقرير يقتضي حصول العلم بما قرر به وذلك إيماء إلى استحقاق الله أن يعترف له الإنسان

بالوحدانية في الربوبية إبطالاً لإشراك المشركين. كما أنّ هذا الاستفهام يحمل دلالة مفادها أنّ من أوجد الإنسان من العدم لا يمتنع عليه بعثه بعد موته.وقد أحصى البلاغيون ما يربو عن ثلاثين معنى يخرج فيها الاستفهام عن أصله.

وقد يكون المراد من الاستفهام حمل المخاطب على الإقرار بالأمر المستفهم عنه ويسمّى هذا النوع بالاستفهام التقريري نحو قوله تعالى:﴿ أليس الله بكاف عبده﴾-الزمر:-36 أمّا أسلوب الأمر الذي هو « هو طلب فعل غير كفّ على جهة الاستعلاء.» [6] فقد يعدل فيه عن هذا الأصل فيستعمل في غير طلب الفعل على هذا الوجه. ويكون مفيدا للتعجيز نحو قوله تعالى: ﴿ وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾- البقرة:-23 ومن خروج أسلوب التمني عن أصله الذي هو :« هو طلب حصول شيء على سبيل المحبة واللفظ الموضوع له ليت.»[7] وضع حرف الاستفهام مكانه نحو "هل" في قوله تعالى: ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ﴾ -الأعراف:-53 فالأصل في هل إفادة الاستفهام ولكنها قد تخرج عن هذا الأصل كما سلف ذكره في الآية الكريمة. « والعدول للدلالة على أن تمني الشفيع أصل وتمنى الرد فرع لأن ترك الفعل إلى الاسم مع استدعاء هل للفعل يفيد ذلك فلو قدر لفاتت نكتة العدول معنى مع الغنى عنه لفظاً.»[8]وقد نبّه ابن يعقوب المغربي إلى علّة هذه النيابة حيث قال: « والسّرّ في العدول عن " ليت " التي هي الأصل في التمني في نحو هذا الكلام بإبراز المتمني في صورة المستفهم عنه الذي لا جزم بانتفائه لإظهار كمال العناية به حتى لا يستطاع الإتيان به إلاّ في صورة الممكن الذي يطمع في وقوعه.» [9]

ومن ظواهر العدول على خلاف مقتضى الظاهر أسلوب الالتفات وهو من أكثر الظواهر اللغوية شيوعا في القرآن الكريم، وأساليب العرب نظرا لخاصيته الأسلوبية المتميّزة بطاقتها الإيحائية القائمة على صيغ التنويع في الإحالات. وهو أحد أشكال العدول في مسار التعبير، وتلوين الخطاب تبعا لخصوصية المعنى، ومتطلبات المقام. فهو لا يجري على وتيرة واحدة لأنّه « مقصور على العناية بالمقصود، وذلك المعنى يتشعّب شعبا كثيرة لا تنحصر، وإنّما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه.» [10] وقد عرّفه البلاغيون: «بالتعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها.»[11] والطرق الثلاثة هي: التكلم والخطاب والغيبة. ومن البلاغيين من لم يقتصر على هذا الضرب بل وسّع دائرة الالتفات لتشمل التنويع بين أزمنة الأفعال، وكذا الضمائر. وجعله ابن جني من شجاعة العربية وعلّق على هذا التصنيف العلوي بقوله: «والسبب في تلقيبه بذلك هو أنّ الشجاعة هي الإقدام والرجل إذا كان شجاعا فإنه يرد الموارد الصعبة، ويقتحم الورط العظيمة، حيث لا يردها غيره، ولا يقتحمها سواه.»[12]ولعل ورود مثل هذه الموارد يدلّ على فطنة البليغ وطول باعه في التصرف في أساليب الكلام، وإيرادها على وجوه شتّى كما يتصرف الشجاع في مجال الوغى بالكرّ والفرّ. و هو من قبيل التوسّع في اللغة.

إذا كان الالتفات « هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأوّل.» [13] فإنّ قيمته البلاغية تكمن فيما يحدثه من انكسار في السياق اللغوي يكون بمثابة المنبّه الذي يشغل بال القارئ، ويشدّ انتباهه، فضلا عن شحن الكلام بطاقات دلالية خاصّة تنتج عن ذلك العدول. وقد كانت عناية العرب به كبيرة فكانوا يراوحون بين أسلوب وآخر دفعا للرتابة في الكلام. وتفننا في طرق إخراجه وهم أحرياء بذلك. « ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب كان أدخل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأملأ باستدرار إصغائه ...أفتراهم يحسنون قرى الأشباح فيخالفون بين لون ولون، وطعم طعم، ولا يحسنون قرى الأرواح فيخالفون بين أسلوب وأسلوب. وإيراد وإيراد فإن الكلام المفيد عند الإنسان لكن بالمعنى لا بالصورة أشهى غذاء لروحه وأطيب قرى لها.»[14]

والجدير بالذّكر أنّه لا يخلو موضع من مواضع الالتفات في القرآن الكريم من غرض خاص كما قرر ذلك الزمخشري بقوله: « وقد تختص مواقعه بفوائد.» [15]وقد حوى تفسيره إشارات لطيفة في هذا المجال وتخريجات ذكية تنبئ عن ذوق سليم، وإدراك عميق لمقاصد الالتفات. كما هو الحال في قوله تعالى:﴿ إياك نعبد وإيّاك نستعين ﴾ - الفاتحة:-05 حيث قال:« وممّا اختصّ به هذا الموضع: أنّه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات. قيل: إياك يا من هذه الصفات صفاته نخصّك بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدلّ على أنّ العبادة له. لذلك التميّز الذي لا تحق العبادة إلا به. »[16]

إنّ المعاني الناجمة عن هذه المنبّهات الأسلوبية قد يدقّ مرماها. ويغمض على غير ذوي الألباب مغزاها نظرا لما تمتاز به من اللطائف التي « قلما تتّضح إلا لأفراد بلغائهم. أو للحذاق المهرة في هذا الفن والعلماء النحارير. ومتى اختص موقعه بشيء من ذلك كساه فضل بهاء ورونق، وأورث السامع زيادة هزة ونشاط، ووجد عنده من القبول أرفع منزلة ومحل، إن كان ممن يسمع ويعقل.» [17]

وأسلوب الالتفات مستفحل في كلام البلغاء الذين كانوا يستحسنونه لما يجدون فيه من لذّة فكريّة، وراحة نفسية تدفع عنهم السآمة. وتجلب الاهتمام.« وكلام العرب كثير الانحرافات، ولطيف المقاصد والجهات. وأعذب ما فيه تلفّته وتثنيه.»[18] والذي يجب التنبيه إليه أنّ توظيف هذا الأسلوب العدولي يتطلّب مهارة في التعبير، ودراية بأحوال النفس وخصائص اللغة . فهو يجود في موضعه المستحقّ له. وينبو في غيره. وكان ابن الأثير قد نبّه إلى هذه الفكرة بالقول « واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أنّ العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت

ذلك. وهو لا يتوخاه في كلامه إلاّ العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارها وفتّش عن دفائنها. ولا تجد ذلك في كلّ كلام فإنه من أشكل ضروب علم البيان وأدقّها فهما وأغمضها طريقا.»[19] ولا يزال البلاغيون تباعا ينبّهون إلى خطورته، وعلوّ شأنه جاعلين إيّاه « من أجلّ علوم البلاغة. وهو أمير جنودها والواسطة في قلائدها وعقودها.» [20]

لم يعرف الالتفات تقسيما موحّدا بين البلاغيين. فقد تضيق دائرته عند من حصره في المخالفة بين الضمائر، وتتسع عند من أضاف إلى ذلك التنويع بين صيغ الخطاب والتكلم والغيبة. وكذا التنويع بين أزمنة الأفعال ويمكن حصره في ثلاثة أضرب،وهي :

**الضرب الأول :التنويع بين صيغ الخطاب والتكلّم والغيبة**

1ـ **الالتفات من الغيبة إلى الخطاب**: ذهب الرازي إلى أنّ « الانتقال في الكلام من لفظ الغيبة إلى لفظ الحضور يدلّ على مزيد التقرب والإكرام. وأمّا ضدّه وهو الانتقال من لفظ الحضور إلى لفظ الغيبة يدل على المقت و التبعيد.»[21] إلاّ أنّ هذا الحكم نسبيّ لا يمكن اتخاذه قاعدة ولا تعميمه على كلّ الحالات. فقد يكون الانتقال من الغيبة إلى الخطاب يتضمّن شدّة الإنكار والتوبيخ والتقريع. ومن أمثلة هذا النوع قول الله سبحانه وتعالى:﴿ وقالوا اتّخذ الرّحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدّا ﴾- سورة مريم:-88-89 حكاية عن اليهود والنصارى ممّن نسب إلى الله جلّ جلاله الولد. تعالى عن ذلك علوّا كبيرا. وهو« ردّ لمقالتهم الباطلة وتهويل لأمرها بطريق الالتفات المنبئ عن كمال السخط وشدّة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجراءة.»[22] مقتضى الظّاهر في هذا أن يؤتى بضمير الغائب فيقال " لقد جاؤوا " على نسق " قالوا " لكنّه عدل عن ذلك قصد التوبيخ. ويكون ذلك أبلغ مع صيغة الخطاب التي تقتضي مواجهة الخصم لإفحامه، وإلزامه الحجة، والزيادة في تبكيته، لذلك ورد هذا النوع من الالتفات بكثرة في مقام التشنيع والزجر والوعيد والتوبيخ. وهذا النّوع من الالتفات كثير في الشعر ومنه قول عنترة:

**شَطَتْ مَزَارَ العَاشِقِينَ فَأَصْبَحَتْ *** عَسِيرًا عَلَيَّ طِلاَبُكِ ابْنَةَ مَخْرَمِ** [23]

وقد علّق ابن جنّي على هذا العدول بقوله: « وكما بالغ في ذكر استضراره خاطبها بذلك لأنّه أبلغ، فعدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب، فقال : " طلابك " فافهم ذلك، فإنّه ليس الغرض فيه وفي نحوه السعة في القول، لكن تحت ذلك ونظيره أغراض من هذا النحو فتفطّن لها.» [24]

2ـ **الالتفات من الخطاب إلى الغيبة**: يحمل هذا النوع من العدول في قسم منه معاني التوبيخ والتقريع لما يتضمّنه فعل الإعراض عن المخاطب من المواجهة إلى الغيبة استهجانا لفعله، وصرفا له من مقام الحضور إلى التغييب على نسق قوله تعالى:﴿ لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين ﴾- النور:-12 وقد كشف صاحب الكشاف سرّ هذا العدول بقوله: « فإن قلت هلاّ قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم. ولمَ عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر؟ قلت: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وليصرّح بلفظ الإيمان، دلالة على أنّ الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدّق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن. وفيه تنبيه على أنّ حقّ المؤمن إذا سمع قالة في أخيه أن يبني الأمر فيها على الظنّ لا على الشكّ. وأن يقول بملء فيه بناء على ظنّه بالمؤمن الخير.»[25]

3ـ **الالتفات من التكلم إلى الخطاب**: لمّا كان هناك تقارب شديد بين صيغتي التكلّم والخطاب اللتين تمثّلان مجال الحضور الذي تتماثل فيه المشاهد أو تكاد، فقد قلّ ورود هذا الضرب من الالتفات لحدّ الندرة. وممّا ذكره البلاغيون كمثال لذلك قول الباري جلّ في علاه:﴿ اتّبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه تُرجَعون ﴾- يس:21-22 وكان مقتضى الظاهر أن يقول وإليه أرجع لكنّه عدل عن التكلّم إلى الخطاب بضمير الجمع. وعُدّ هذا التعبير من باب الالتفات لأجل التعريض بالمخاطبين، ويكون المعبّر عنه في الصيغتين واحد. لكنّه وجّه لهم الخطاب لتحذيرهم من مغبّة الشرك والعناد. وتقريعهم على التفريط في جنب الله. وقد جمع في هذه الآية بين الإقرار بنعمة الإيجاد التي توجب الشكر، وبين التذكير بالمعاد الذي يوجب الزّجر لكلّ من خالف الأمر، ولم يرج لقاء ربّه. ومن البلاغيين من ربط بين الآيتين ليقرر أنّ الالتفات كان من الخطاب الذي تضمّنته الآية السابقة إلى التكلّم الذي ورد في صدر الآية اللاحقة. وكان مقتضى الظاهر أن يقول: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم وإليه ترجعون. لكنّه أبرز الكلام بإيراده في معرض المناصحة لنفسه تلطّفا بهم. ولكي يبيّن لهم أنّه حريص عليهم يحبّ لهم ما يحبّ لنفسه. وذلك أدخل في إمحاض النصح، ودفع العناد.

4ـ **الالتفات من الخطاب إلى التكلم**: هذا النوع من الالتفات قليل الاستعمال هو الآخر لقرب المسافة بين الخطاب والتكلّم كما سلف ذكره. وممّا ورد منه في القرآن الكريم قول الله جلّ جلاله: ﴿ قل الله أسرع مكرا إنّ رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾- سورة يونس من الآية: 21- ففي الآية عدول عن خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى التكلّم بصيغة الجمع إذ لم يقل إنّ رسله على نسق الصيغة السابقة وفي ذلك «من المبالغة ما لا يوصف ، وتلوينُ الخطاب بصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم للتشديد في التوبيخ.»[26] وممّا جاء منه شعرا قول علقمة:

**طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الحِسَانِ طَرُوبُ *** بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ**

**يُكَلِّفُنِي لَيْلَى وَقَدْ شَطَّ وَلْيُهَا *** وَعَادَتْ عَوَادٍ بَيْنَنَا وَخُطُوبُ**[27]

5ـ **الالتفات من الغيبة إلى التكلم**: من المواطن القرآنية التي تمثّل فيها هذا النمط العدولي قوله عزّ وجلّ:﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا

حوله لنريه من آياتنا إنّه هو السميع البصير﴾ -سورة الإسراء:01- تضمّنت هذه الآية عدولا عن الغائب المفرد في " أسرى" إلى ضمير جمع المتكلم في " باركنا " بنون العظمة الدالة على عظيم سلطانه. « والالتفات هنا امتاز بلطائف منها : أنه لما استُحضرت الذات العلية بجملة التسبيح وجملة الموصولية صار مقام الغيبة مقام مشاهدة فناسب أن يغير الإضمار إلى ضمائر المشاهدة وهو مقام التكلم ومنها : الإيماء إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام عند حلوله بالمسجد الأقصى قد انتقل من مقام الاستدلال على عالم الغيب إلى مقام مصيره في عالم المشاهدة.»[28]

6ـ **الالتفات من التكلم إلى الغيبة**: أساليب هذا اللون من الالتفات لا تخلو من نكت بلاغية ولطائف معنوية علاوة على القيمة الفنية في تلوين الخطاب الذي يكتسب به روعة وحسنا فمن هذا القبيل قول الله سبحانه و تعالى:﴿ قل يا أيّها النّاس إنّي رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلاّ هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلّكم تهتدون ﴾- سورة الأعراف:-158 تضمّنت هذه الآية انكسارا غير متوقّع عند قوله:﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأميّ ﴾ وكان مقتضى الظاهر أن يقول: فآمنوا بالله وبي... عطفا على قوله: ﴿ إنّي رسول الله إليكم جميعا ﴾ إلاّ أنّه لا يحسن سرد تلك الصفات التي نسبت إليه عليه الصلاة والسلام وفق هذه الطريقة. وهو ما نبّه إليه الزمخشري حين قال : « عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه، ولما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أنّ الذي وجب الإيمان به و اتّباعه هو هذا الشخص المستقل بأنّه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، كائنا من كان، أنا أو غيري، إظهارا للنصفة وتفاديا من العصبية لنفسه.»[29]

## الضرب الثاني: التنويع بين أزمنة الأفعال

ألحق جماعة من البلاغيين مخالفة مقتضى الظاهر في صيغ الأفعال بباب الالتفات كونه يمثّل عدولا عن أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأوّل، حيث تحدث المغايرة في التعبير بين صيّغ الأفعال في الأزمنة الثلاثة، فيعبّر بالماضي عن الحاضر أو المستقبل، أو العكس. ومن شأن ذلك العدول أن يجلب دلالات إضافية. ويحقّق مقاصد بلاغية. وهذا ما يتجلّى من خلال النماذج الآتية:

1ـ **الالتفات من الماضي إلى المضارع**: تكاد تشترك دلالة العدول من الماضي إلى المضارع في استحضار الصورة المعبّر عنها، وتجدّد الحدث الذي يدلّ عليه الفعل، والاستمرار فيه. مثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إنّ الذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للنّاس سواء العاكف فيه والباد ﴾- سورة الحج من الآية:25.-الأصل الافتراضي في هذا أن يقال: إنّ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله إلاّ أنّه عدل عن التعبير بالماضي إلى المضارع للدلالة على تكرارهم لذلك الفعل واستمرارهم فيه حتى صار ذلك دأبهم. ولمّا كان الصدّ منهم كالدّائم « اختير لهم يفعلون، كأنّك قلت: إنّ الذين كفروا ومن شأنهم الصّدّ.»[30]

2ـ **الالتفات من المضارع إلى الماضي**: أما الالتفات عن المضارع إلى الماضي ففائدته تأكيد حدوث الفعل ، لتنزيله منزلة الواقع. وأنه كائن لامحالة كما في قول الحق تبارك و تعالى:﴿ ويوم ينفخ في الصّور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله وكلّ أتوه داخرين﴾- سورة النمل:87.حيث عبّر بالفعل "ففزع" وهو ماض عاطفا إياه على المضارع " ينفخ" للدلالة على تحقق حدوث الفعل وأنّه واقع لا محالة. إضافة إلى أنّ هذا الحدث من الأمور المستعظمة التي تشغل بال السامع وتبهره. لذلك قال ابن القيّم: « الفعل الماضي يخبر به عن المضارع إذا كان الفعل المضارع من الأشياء الهائلة التي لم توجد، والأمور المتعاظمة التي لم تحدث، فتجعل عند ذلك فيما قد كان ووجد ووقع الفراغ من كونه وحدوثه.»[31]

3ـ **الالتفات من المضارع إلى الأمر**: هذا الضرب من الالتفات قليل الاستعمال وعليه جاء قوله جلّت قدرته على لسان هود عليه السلام:﴿ إن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنّي أشهد الله واشهدوا أنّي بريء ممّا تشركون ﴾- سورة هود :54.

هذه الآية الكريمة ردّ من سيدنا هود عليه السلام على قومه الذين كذّبوه وسخروا منه ورموه بالمسّ. وقد تضمنت هذه الآية عدولا عن المضارع إلى الأمر " واشهدوا " للدلالة على الفرق الحاصل بين الشهادتين. وقد علّل الزمخشري هذا العدول بقوله: « فإن قلت : هلا قيل : إني أشهد الله وأشهدكم؟ قلت : لأنّ إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده. وأمّا إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب. فعدل به عن لفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة. كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه اشهد علي أنّي لا أحبك، تهكما به واستهانة بحاله.»[32] وصفوة القول فيما سبق أنّ العدول عن صيغة من الفعل إلى غيرها زمنيا لا تكون إلاّ لفارق معنوي، واقتضاء دلالي. وفي ذلك سعي إلى توجيه نظر الإنسان وفكره بغرض التدبّر والاعتبار المفضي بصاحبه إلى جادّة الصّواب.

## الضرب الثالث: التنويع بين الإفراد والتثنية والجمع

من مجاري العرب في كلامهم تلوين الخطاب وتنويع الأسلوب بين الإفراد والتثنية والجمع والعدول عن أحدها إلى الآخر تحقيقا لأغراض فنية ومقاصد بلاغية. وللأسلوب القرآني نسق خاص في تلوين الإحالات، وربطها بالمقاصد والغايات. مثلما يتجلى في النماذج الآتية:

1ـ **الالتفات من المفرد إلى المثنى**: قد تقتضي بلاغة الكلام الانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين تماشيا مع الغرض المراد. من ذلك قوله تعالى:﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين﴾- سورة يونس:78.أُفرِد موسى عليه السلام بالخطاب بداية كونه

صاحب الرسالة وعلى يديه ظهرت المعجزة. وهو الذي حاجّ أولئك القوم وأفحمهم. ثمّ أشركوا معه أخاه هارون سعيا منهم إلى تيئيسه من الإيمان بدعوته أيّا كان مصدرها.

2ـ **الالتفات من المفرد إلى الجمع**: من الأساليب القرآنية التي تجسّد فيها العدول عن الإفراد إلى الجمع قول الحق سبحانه وتعالى:﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريّه من آياتنا إنّه هو السميع البصير ﴾- سورة الإسراء:01. حيث عبّر بالمفرد الغائب " أسرى " . ثم قال الذي باركنا بلفظ الجمع ولو جاء الكلام على نسق واحد لكان سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليريه من آياته إنه هو السميع البصير. « والالتفاتُ إلى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات.» [33]

3ـ **الالتفات من التثنية إلى الجمع**: قد يكون الحمل على المعنى مسوّغا للعدول عن التثنية نحو الجمع، مثلما ورد في قول الله جلّ جلاله:﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إنّ الله يحبّ المقسطين ﴾- سورة الحجرات :09. القياس يقتضي أن يكون التعبير بلفظ " اقتتلتا " بدلا من " اقتتلوا " لكنه وقع العدول عن المثنى إلى الجمع ثمّ العودة إلى المثنى ثانية. « والعدول إلى ضمير الجمع لرعاية المعنى، فإنّ كل طائفة من الطائفتين جماعة. فقد روعي في الطائفتين معناهما أولاً ولفظهما ثانياً على عكس المشهور في الاستعمال. والنكتة في ذلك ما قيل : إنهم أولاً في حال القتال مختلطون فلذا جمع أولاً ضميرهم. وفي حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثني الضمير.» [34]وقد يقتضي مبدأ الخفّة في التعبير العدول عن المثنى إلى الجمع كما هو الحال في قول الباري جلّ وعلا:﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾- سورة التحريم من الآية:04.

5ـ **الالتفات من الجمع إلى المفرد**: قال سيبويه: « وليس بمستنكر في كلامهم أن يكون اللفظ واحدا والمعنى جميع حتى قال بعضهم في الشعر من ذلك ما لا يستعمل في الكلام. قال علقمة بن عبدة:

**بِهَا جِيَفُ الحَسْرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا *** فَبِيضٌ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبُ**[35]

6ـ **الالتفات من المثنى إلى الجمع فالإفراد**: قد يستدعي المقام التنويع في الخطاب والالتفات في الأسلوب الواحد بين صيغ الإفراد والتثنية والجمع مثلما جاء في قوله سبحانه و تعالى: ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصّلاة وبشّر المؤمنين ﴾- يونس :87. قال الزمخشري : « فإن قلت: كيف نوّع الخطاب فثنّى أوّلا، ثمّ جمع، ثم وحّد آخرا ؟ قلت: خوطب موسى وهارون- عليهما السلام- أن يتبوآ لقومهما بيوتا، ويختاراها للعبادة، وذلك مما يفوّض للأنبياء، ثمّ سيق الخطاب عامّا لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خصّ موسى -عليه السلام- بالبشارة التي هي الغرض، تعظيما لهما وللمبشر بها.»[36]

إذا لم يكن لأسلوب الالتفات من غاية غير تطرية نشاط السامع وإحداث المفاجأة التي تأخذ بمجامع القلوب حين يبلغ الخطاب ذروته في براعة الإخراج، فهو في تحقيق هذا المآرب « غرض معتمد، وسرّ على مثله تنعقد اليد.» [37]فضلا عن أنّه يتيح للأديب إفراغ أحاسيسه في قوالب فنية ذات أبعاد جمالية متعددة. والذي يجب الجزم به والاطمئنان إليه هو أنّ أسلوب الالتفات ليس من قبيل التصرف اللغوي الذي يحدث اعتباطا، إنّما يرد لهدف معنوي مركوز في النفس. وصفوة القول في هذا الأمر « أنّ الدلالة المستخلصة من أسلوب الالتفات هي ثمرة التفاعل القائم بين الصيغة الأسلوبية والسياق المخصوص، وما دامت السياقات لاحدّ لها، فإنّ دلالات صوّر الالتفات تندّ عن الضبط.» [38] وتتلوّن بتلوّن المقاصد والغايات، وما يقتضيه السياق من تنويع في نسج التراكيب والعبارات. وهذا شأن العدول عن مقتضى الظاهر الذي تتعدّد أصنافه في الذّكر. وتجلّ مقاصده عن الوصف والحصر.

## الهوامش

1- الخطيب القزويني،التلخيص في علوم البلاغة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:02، 1932م. ص: 07

2- م ن: 29.

3- الخطيب القزويني،الإيضاح في علوم البلاغة،دار الكتب العلمية، بيروت، ط:01، 2003م، ص:06

4- محمد أبو موسى. خصائص التراكيب ، مكتبة وهبة، القاهرة، ط:07، 2006م.ص:87.

5- عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح:عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة،ص: [19]/08.

6- سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د ت) ص: 308-309.

7- م ن:238/02.

8- شهاب الدين السيد محمود الألوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان. :128/08.

9- ابن يعقوب المغربي،مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ،ابن يعقوب المغربي : 240/02.

10- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم وتعليق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر،الفجالة، القاهرة. ط:02، 170/02.

11- الخطيب القزويني،الإيضاح في علوم البلاغة.86/02

12- يحي بن حمزة العلوي الطراز، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط:01، 2002م: 71/02.

13- م ن: 71/02.

14- أبو يعقوب يوسف السكاكي، مفتاح العلوم،، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ص:86.

15- أبو القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي الكشاف ، دار المعرفة، بيروت، لبنان.:10/01.

16- م ن:10/01.

17- مفتاح العلوم، السكاكي: 87.

18- أبو الفتح عثمان بن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح

عنها: دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:01، 1998م. 129/02.

19- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة. ط:02: 180/02.

20- العلوي ،الطراز،:71/02.

21- محمد بن عمر بن الحسين الرازي، مفاتيح الغيب دار إحياء التراث العربي، 236/17.

22- أبو السعود،إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، الرياض، السعودية.:606/03.

23- الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنترة بن شداد العبسي، قدّم له ووضع فهارسه مجيد طرّاد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:01، 1992م.ص:151.

24- ابن جني ، المحتسب: 277/02.

25- الزمخشري ، الكشاف عن حقائق التنزيل،دار المعرفة ، بيروت، لبنان: 65/03.

26- أبو السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،مطبعة السعادة، الرياض، السعودية:648/02.

27- ديوان علقمة بن عبدة الفحل، تحقيق: لطفي الصقال، ودرية الخطيب، مراجعة: فخر الدين قباوة، دار الكتاب العربي، حلب، ط:01، 1969م. ص:33.

28- محمد الطاهر بن عاشور،التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر،تونس،1984: 21/15.

29- الزمخشري، الكشاف: 98/02.

30- الفرّاء، معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط:03، 1983م.221/02.

31- ابن القيّم، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:02، 1988م.ص:54.

32- الكشاف:221/02.

33- أبو السعود ،إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم:423/03.

34- الألوسي ،روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،:104/26-105.

35- سيبويه،الكتاب، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط:03، 1990م.:129/01.

36- الزمخشري ،الكشاف:200/02.

37- ابن جني ،المحتسب:240/01.

38- محمد مشبال، البلاغة والأصول،إفريقيا الشرق،الدار البيضاء،المغرب،2007م، ص:140.